الترجمة
بين علم اللغة ولغة العلم

د. مصطفى حجازي

مقدّمة:

لا بدّ لمحاولة الردّ على مقالة الزميل د. خليل أحمد خليل التي خصّ بها معجم مصطلحات التحليل النفسي، من أن تستهل بتسجيل الشكر والتقدير على ما قدّم. فنحن نشكر له ما بذل من جهد في قراءة هذا العمل والكتابة حوله، مسجّلين له فضل السبق في تلبية دعوتنا وبسخاء الى السادة القرّاء لموافاتنا بملاحظاتهم على الطبعة الأولى من هذه الترجمة سواء من حيث الشكل واللغة أم من حيث المصطلحات والمضمون. ولقد بادر الى ذلك بما عرف عنه من همّة وجهد نعتزّ بتوفّرهما لديه. ونحن نقدّر له كلّ التقدير انطلاقه فيما كتب حول اللغة والترجمة، من منطلق علمي يقوم على نظرية ويؤسّس منهجاً. فما أكثر ما درجت عليه العادة عندنا من تحوّل عملية النقد إلى مجرّد مسألة تشهير وإبراز عيوب ونقائص تقع في المهاترة وتصفية حسابات ذاتية باسم النقد. أمّا الزميل الكريم فلقد حاول أن يصدر فيما كتب عن وجهة نظر علمية تضع للحوار أساساً وإطاراً. وبغض النظر عن مدى صوابية الأطروحة التي تقول بها وجهة النظر هذه - مما سيشكّل الشطر الأكبر من ردنا - فانّ لها قيمة تأسيسية، حيث تفتح السبيل أمام طرح مقوّمات الكتابة والترجمة العلميين وشروطهما.

سنناقش في ردّنا مسائل ثلاث تشكل أساس مقالة الزميل د. خليل أحمد خليل، وهي اللغة، التعريب، الترجمة، وصولاً إلى التعقيب على وجهة النظر التي اختتم بها مقالته بعنوان «الكتابة العلمية». وفي هذا الردّ سنعرض موقفنا من وجهة نظره في الترجمة والكتابة والتي تندرج ضمن التيار اللغوي فيما هو مطروح من سجال حول الترجمة إلى العربية، ونقدّم وجهة النظر المقابلة والتي تندرج بداية ضمن التيار العلمي المقابل للأول، ولكنها تتجاوزه وصولاً إلى الموقف الذي يبدو أقرب إلى الموضوعية في هذا السجال.

أولاً ـ في اللغة:

تأخذ الملاحظات حول لغة المترجم الحيّز الأكبر من دراسة الزميل الدكتور خليل أحمد خليل، حوالى ثلثي النص، وتتمثّل باستعراض الأخطاء النحوية وتصحيحها، وبعض الأخطاء اللغوية ونقاشها. والمترجم يوافق الناقد تمام الموافقة على ضرورة تجنيب عمل علمي، كهذا المعجم الذي بذلت في ترجمته جهوداً كبيرة كل هذه الأخطاء والمآخذ اللغوية والنحوية وغيرها. وهو أمر ليس بالعسير المنال. ويتحمّل المترجم كما الناشر المسؤولية الكاملة على هذا الصعيد. ونشير هنا ـ من باب الحديث عن ظروف خروج هذا العمل الى القراء وليس من باب التبرير الذي لا يمكن أن يقبله المترجم والناشر حول عائدة تصحيح النص لغوياً، في ظل ظروف تميّزت بدرجة عالية من الإرباك. ولم يكن المترجم يتقبّل بحال من الأحوال بخروج هذا العمل للقارىء لو اتّضح له أن النصّ لم يصحّح لغوياً كما توقّع، ناهيك عن الأخطاء المطبعية العديدة التي لم يطولها التصحيح أيضاً. لقد سعد المترجم كثيراً بملاحظات الناقد التي تسعى الى الارتقاء بلغة هذا المعجم، وتعلّم منها الكثير، مما يفيده في تطوير لغته في الكتابة ولقد أخذ المترجم عهداً على نفسه بأن لا تخرج الطبعة الثانية من هذا المعجم إلّا بعد أن تخضع لمراجعة لغوية دقيقة من قبل أحد اللغويين المشهود لهم. ذلك وحده هو ما يتمشّى مع موقف المترجم من ضرورة خروج الأعمال العلمية بلغة عربية سليمة البنيان، كاملة البيان. فالعلم لا يجوز أن يؤخذ كمبرر لعدم استقامة اللغة.

وطالما أتيحت هذه الفرصة للمترجم كي يعبّر عن رأيه، فإنّ بإمكانه أن يزيد على ما سبق، تحفّظه على الشكل: فالطباعة تحتاج إلى مزيد من العناية، وكذلك هو حال الورق المستخدم الذي يحتاج إلى مزيد من الدرس في اختياره منعاً لتأثير الشفافية في وضوح النصّ المكتوب. وهو أيضاً ما سيتم السهر على علاجه في الطبعة الثانية.

إلّا أنه مع التسليم الكامل بضرورة استقامة اللغة وتنقيتها من الشوائب، لا بد من التحفّظ حول الحكم الذي أطلقه الناقد على لغة هذا المعجم حين تحدّث عن اللغة الفصحى واللغة المحكية. فالمترجم رغم تمسّكه بوضوح اللغة وبيانها، إلّا أنه ضد الركاكة التي تتمثّل باللغة المحكيّة (العامية) والتي يبدو وكأنّ الناقد يشير إلى أن لغة هذا المعجم تقع فيها. إن استعراض أي من نصوص هذا المعجم يظهر ولا شك أن لغته هي أبعد ما تكون عن المحكي والعامي. وهناك فارق ما بين أخطاء لغة ونحو وبين عامية وفصحى، يتمثّل ببنية الأسلوب اللغوي عينه.

على أن الهمّ الرئيسي الذي وجّه جهد المترجم هو وضوح النصّ المترجم وتماسكه وبيانه. وذلك لسبب شكلي وآخر أساسي. أمّا على الصعيد الشكلي فإنّ المترجم ـ هو من المدافعين عن بيان الأسلوب اللغويّ ووضوحه، باعتبار أنّ وضوح التعبير هو دليل وضوح التفكير. وهو بذلك يعارض بشدّة ما يذهب إليه نفر من الكتّاب، من توسّل لأساليب مبهمة وملتوية يتّخذون منها دلالة على ارتقاء فكري مزعوم.

وأما على صعيد الأساس فلا ضير من الاشارة إلى أن المترجم اختار، بعد وقفة طويلة عند صعوبة النصّ الأصلي وتعقيده ، الترجمة الأمينة من بين عدة خيارات أخرى منها على سبيل المثال الترجمة بتصرف أو الترجمة التأويلية. وتنبع أهمية الترجمة الأمينة من ضرورة نقل فكر النصّ الأصلي الذي يشكّل وجهة نظر قائمة بذاتها حول الفكر الفرويدي نقلاً أميناً إلى العربية دون أدنى مساس بتكامل وجهة النظر هذه.

ولقد طرح خيار الترجمة الأمينة على المترجم تحدّيات فكرية ولغوية كبرى. ذلك أنّ النصّ الأصلي ليس كتابة محضة، بل هو عبارة عن كتابة حول الكتابة الفرويدية، أو بتعبير آخر هو اجتهاد في النصوص الفرويدية له منطلقاته المحددة. كان همّ المترجم الخروج بنص عربي حول هذه الكتابة المزدوجة، يتّسم بالتماسك والبيان. ويعتقد المترجم بأن لبّ الترجمة على هذا الصعيد اللغوي يكمن في الظفر بهذا الهدف تحديداً، مما يتجاوز تصحيح اللغة على أهميته.

لقد كان المترجم يطمح بوقفة من قبل الناقد عند هذه المسألة الرئيسة فيبيّن مدى وضوح النصّ، وقابليته للفهم. ذلك أنه إذا كانت اللغة ونحوها قابلين للتصحيح بسهولة، فإن وضوح النصّ وقابليته للفهم وأمانته العلمية هي معيار فشل العمل أو تحقيقه لهدفه، وبالتالي فهي مقياس قيمته الحقيقية.

ثانياً ـ في التعريب والترجمة:

ندخل هنا في صلب ردّنا على مقالة الزميل د. خليل. فلقد أثار في هذا القسم من مقالته قضية التعريب وقام بجهد طيّب على صعيد اقتراح بعض الكلمات العربية بدلا من الكلمات المعرّبة، ثم انتقل إلى مسألة الترجمة حيث اقترح مفردات تصلح أساساً لتطوير بعض المصطلحات المستخدمة في المعجم. ووقف أخيراً عند بعضها الآخر فاقترح بدائل وأثار تساؤلات تستدعي منّا وقفة متأنّية تتصدّى للب عملية الترجمة العلمية مبيّنة في الآن عينه مدى تحييد وجهة نظره، كما يعرضها في العنوان الأخير من مقالته، عن القصد. ولكي لا نطيل على القارىء فإننا سنقتصر في نقاشنا على بعض المفردات الهامة مما يساعد على التدليل على ما نودّ طرحه.

1 ـ في التعريب:

يأخذ الناقد على المترجم قناعته (استسهاله؟) بوضع الكلمة الأجنبية في كتابة عربية في بعض المواضع «غير القليلة» ويقوم الناقد بجهد لسدّ هذا النقص من خلال اقتراح كلمات عربية يستأهل بعضها الوقوف عنده ودراسة جدواه، أمّا البعض الآخر فيبدو فيه عناء لا مبرر له دوماً.

ومن الكلمات التي تستأهل دراسة جدواها، اقتراح «نظام محفوظات» بدلاً من «نظام أرشيف» الواردة في المعجم، وكلمة «احتدامي» مقابل كلمة «درامي» المعرّبة، وكلمة «راسوم» بإزاء «كليشيه»، وكلمة «حراكي» بإزاء كلمة «دينامي».. ولا بد من طرح هذه المفردات في التداول والابقاء منها على تلك التي تشقّ طريقها وتثبت قدرتها الوظيفية. وهو جهد مطلوب عادة في كل اللغات، حين تنقل إليها أفكار موضوعة في لغات

مختلفة وفي سياق حضاري وثقافي مغاير. ولقد قدّم الزميل د. خليل هنا جهداً مشكوراً. ذلك أن هناك في الكثير من الأحيان ميلاً إلى الاستسهال عند بعض العلماء والباحثين من خلال الإفراط في اللجوء الى التعريب بدلاً من التأنّي وبذل الجهد في إيجاد المفردات العربية التي قد تتوفّر وتفي بالغرض.

وأما تبرير المترجم لاستخدام هذه المفردات معرّبة فهو كونها قد شقّت طرقها في هذا الاستخدام المعرّب وشاع استعمالها كثيراً لدرجة أكسبتها حقّ الحياة في العديد من الأقطار العربية. وهذا ليس بعجيب، أو نجد نظيراً له في كل لغات العالم حتى أكثرها حيوية وأغزرها إنتاجاً للعلوم على اختلافها. وهو ليس دليل قصور في اللغة العربية طالما أنّ هذه اللغة لم تستخدم بعد لانتاج فكري أصيل في هذا المضمار. وهي أثبتت قدرتها في كل المرّات التي قام فيها مثل هذا الانتاج.

إلّا أن هناك مفردات معرّبة منذ زمن بعيد قد وردت في المعجم من مثل كلمة لبيدو اللاتينية الأصل، وكلمتي ايروس وتاناتوس اليونانيتي الأصل، وكلمة نرفانا الخ.. هذه الكلمات مستخدمة حالياً في اللغات الأوروبية الحديثة بدون تعديل. ولا يجد المترجم أن هناك غضاضة من بقائها على حالها طالما أنها شقّت طريقها كمصطلحات علمية محددة المعنى. والاجتهاد هنا قد لا يكون موفّقاً دوماً، كما فعل الناقد حين اقترح كلمة شبق، وشهوة/ اشتهاء، وطاقة حيوية/جنسية بإزاء لبيدو. فاذا كان تعبير طاقة حيوية/جنسية أقرب إلى معنى اللبيدو فإن مفردات شبق وشهوة لا صلة لهما بهذا المصطلح. فالشبق ومثله الغلمة يرتبطان بمفردة Érotisme، وأما الشهوة فترتبط بالناحية الحسية الجنسية وهو ما يمكن أن يمثل أحد تجلّيات اللبيدو. إلّا أنه لا يمكن أن يحيط به ويستوعبه. ذلك أن اللبيدو وهو تلك الطاقة الحيوية الجنسية التي تقع على الحافة ما بين الجسدي والنفسي، والتي تمدّ النزوات الجنسية بزخمها، من حيث الموضوع أو الهدف. وكطاقة حيوية جنسية قد يبتعد تماماً عن الهدف الجنسي المباشر كما هو شأن كل حالات التسامي. وعلى كل حال فليس من اليسير كما يقول المؤلفان في صدد عرض هذه المادة (صفحة 428) تقديم تعريف لكلمة لبيدو يجوز الرضى تماماً، فهو لم يحظ مطلقاً بتعريف قاطع. وقد يعود ذلك الى تنوّع تجلّياته وتدخّله كطاقة في العديد من النشاطات والرغبات ذات الطابع الجنسي أو المنشأ الجنسي.

أما ما قال به الناقد من اقتراح ترجمة اللبيدو «بماء الحياة» في العبارة التي أوردها لإبن سينا فلا نرى أيّ صلة تربط بينهما، حيث ماء الحياة عبارة عن مادة حيّة تحمل الإخصاب، وهي ليست من اللبيدو في شيء وأما كلمتا ايروس التي تعني إله الحب، وتاناتوس التي تعني إله الموت باليونانية. فلا غضاضة من بقائهما كأسماء أعلام وبدون ترجمة.

على كلّ حال اذا كان الجهد لتلافي الإفراط في التعريب، إلّا أنّ الشطط فيه قد يجانب القصد أحياناً. إنّ كل اللغات الحية تدخل في صلبها مفردات مأخوذة من لغات أخرى للدلالة على ظواهر أو قضايا عولجت أو وضعت في تلك اللغات الأجنبية. ذلك هو مثلاً شأن اللغة الفرنسية التي غزتها لغة الحاسبات الآلية الموضوعة

في أميركا. وهو ما دعى رئيس الجمهورية الفرنسية في معرض حديثه عن تطوّر تكنولوجيا المعلوماتية الفرنسية إلى الوعد بأن اللغة الفرنسية ستستدرك هذا التأخير وستعرض قائمة طويلة من التعابير الفرنسية التي تعبّر عن الانجازات الفرنسية المتقدمة والتي ستحتاج إلى بحث عن معادلات لها في اللغة الانجليزية. ذلك ان المصطلحات لا تنشأ هكذا في الفراغ، بل هي توضع من قبل العاملين في مجال معيّن للتعبير عن الوقائع التي يتعاملون معها وما يحيط بذلك من عمليات ابتكار.

من رأي المترجم أن المسألة الأساس في هذا الصدد ليست المصطلحات وحدها على أهميتها، بل هي قدرة اللغة العربية على تقديم القوالب والصيغ اللغوية القادرة على نقل الفكر، والتعبير عنه وإنتاجه. ولقد ثبت للمترجم خلال قيامه بالترجمة، أن اللغة العربية لا يعوزها على هذا الصعيد أيّا من مقوّمات القدرة التعبيرية عن علوم لم توضع فيها أصلاً. وبالتالي فهي قادرة على تقديم القوالب التعبيرية الضرورية للإنتاج الأصيل.

2 ـ في الترجمة:

قدّم الناقد سلسلة من الاقتراحات حول بعض المصطلحات الواردة في المعجم. ولقد صدر أساساً عما قدّمه عن همّ لغوي فاقترح ما اعتقده الأكثر صواباً. ولقد أسهم في اقتراحاته هذه بفتح المجال أمام تفكير ونقاش حول مسألة المصطلحات العلمية بالعربية مما يساعد على تطويرها وهو ما يشكر عليه. ولقد أصاب حين كانت محاولته تقتصر على اقتراحات لغوية ضمن المعنى نفسه، من مثل: اقتراح كلمة الفرويدية عوضاً عن المذهب الفرويدي الواردة في المعجم، وكذلك راسوم بإزاء كليشيه، ورعاية أمومية بدلاً من رعاية أموية الواردة في المعجم. كما أنه اقترح مفردات قابلة للنقاش في مثل خيلة بإزاء Image، بينما ورد في المعجم صورة، ومخيال بإزاء Imaginaire، ومن مثل «الفاعل» (أنا) و«القابل» (العالم الخارجي) عوضاً عن «الموضوع» الواردة في المعجم. أو قوله بكلمة «لسانه» بإزاء Linguistiques عوضاً عن الألسنية الواردة في المعجم مع أن هذه الأخيرة هي الأكثر شيوعاً في الكتابات الحديثة، ومن مثل «تمثّل» بإزاء مصطلح Représentation عوضاً عن كلمة (تصور) الواردة في المعجم. إلاّ أننا لا نوافقه على ذلك لسببين. فكلمة تمثّل التي يقترحها يبدو أنه فهم منها «الاستحضار» وهو غير المقصود في المصطلح. فالمقصود بالمصطلح الصورة الفكرية «ما نتصوّره، وما يكون المحتوى المحسوس لفعل التفكير» وهو ما يشكّل ذلك الجانب من العمليات النفسية الذي يقابل العاطفة ويتعارض معها. كما أن كلمة «تمثّل» تستعمل كما درجت العادة للدلالة على Assimilation.

إلاّ أنّ الناقد قد وقع فيما اقترحه من مفردات عوضاً عن بعض المصطلحات الواردة في المعجم في أخطاء تمسّ المعنى العلمي لهذه المصطلحات. ذلك أنه قدّم اقتراحاته انطلاقاً من النظر في المعنى الحرفي للمصطلح كما ورد في الفرنسية، وأعتقد أن ما أقترحه أكثر مقاربة للدقة على صعيد الدلالة اللغوية. وهو لو وقف عند المعنى الفنيّ لهذه المصطلحات، لما كان قد وقع فيه من أخطاء. ونكتفي هنا بسرد بعض من أبرز هذه الحالات:

1 ـ «حالة بينية» بإزاء Cas-limite الفرنسية. ولقد اقترح الناقد تعبير «حالة قصوى». ويبدو أن ما دفعه إلى

هذا الاقتراح هـو كلمة Limite التي قـد توحي «بـالأقصى» Extrême، إلاّ أن المقصود هنـا ليس وصول الأمـر إلى أقصى حدوده البتة. فمصطلح «حالة بينية» يقصد به تلك الحالة المرضية التي تقـع ما بـين حالتـين مرضيتـين، من مثل الوقوع ما بين العصاب والذهان. فالمريض هنـا هو أكـثر من عصابي ولكنـه لم يصل في تـطوّر مرضـه بعد إلى حالة الـذهان الأكـثر خطورة. وفي الأصـل يستخدم هـذا المصطلح في تصنيف درجـات الذكـاء للدلالة عـلى هذه الفئة من الناس التي تقع في مرتبة وسط ما بين الذكاء العادي والتـأخّر العقـلي، فلا هي تقـع مع المتخلّفـين، ولا هي تتمتّع بالقـدرات التي تميّز الـذكاء المتـوسط. ويبدو أنّ الكلمـة الفرنسيـة Cas-limite قد ضلّلت هنـا الزميـل الناقد مع أنها ترجمـة لأصل انجليـزي أكثر منهـا دقة وتعبيـراً عن المقصود وهـو Border line. والذي يعني حـرفياً «خط الحدود» بين حيّزين.

2 ـ «تحليل نفسي وحشي» بإزاء Psychanalyse sauvage ولقد اقترح لـذلك «تحليـل نفساني فـطري» (عضوي، غير علمي). أولاً لابـد من تصـويب نفسـاني فهي تستعمـل نسبـة إلى علم النفس. أمّـا نفسي فهي نسبـة إلى النفس. والتحليل نفسي هنا وليس نفساني حيث إنه تحليل للنفس البشريـة. وأمّا القـول بفطري فيبـدو أنه يلمّح الى مـا هو بـدائي، لم يرق بعـد إلى مرتبـة الارصان العلمي. وهـذا ليس المقصود بـالمصطلح. فـالتحليل النفسي الوحشي قد يبلغ شأواً بعيداً في فـذلكته العلميـة. إلاّ أن صفة الـوحشي يقصد بهـا هنا، ذلـك التحليل الـذي لا يـراعي التوقيت المنـاسب ولا التعبير المنـاسب كي يتقبّله الشخص الذي يـوجّه إليـه. إنه يـأخذ شكـل الصـدفة والاعتـداء النفسي من خـلال الكشف عن كـوامن النفس التي لم يستعـد بعـد الشخص لمواجهتهـا ممـا يثـير الاضطراب في نفسه.

3 ـ «الاضطرار التكرار» بإزاء Compulsion de répétition ويقترح الناقد عـوضاً عن ذلـك «إكراه تكـراري» أو «قسر مكرر». هنا قـد جانبـه الصواب لأنـه لم يتمعّن المعنى الفنّي لهذا التعبـير، مما جعله يقلب الأمـور رأساً عـلى عقب. فليس الاكراه أو القسر هو المكرر، بل العكس تمـاماً. التكـرار هو الـذي يخضع لـلإرغام والاضـطرار، ويشـير هذا المصـطلح كما هـو معروف الى عـارض شائـع في اللائحـة العياديـة لعصاب الهجـاس، حيث يضـطر المريض مثلاً أن يكرّر غسل يديه عدداً لا متناهياً من المرات معتقداً في كل مـرة أنه لم ينـظفها بمـا فيه الكفـاية. أو أن يضطر إلى تكرار عد شيء ما أو حسابه عدداً لا متناهياً من المرات خشية الوقوع في الخطأ.

4 ـ «تصعيـد القلق» بـإزاء Développement d'angoisse وهـو يقتـرح «نمـو قلق، تصـاعـد قلق». هنـا أيضـاً الموضوع المقصـود هو القلق Angoisse وليس النمـو Développement ـ فالقلق هـو الذي يتصـاعد ويشتـد وليس النمو هو ما يتم بشكل قلق. ولـو رجع إلى التعبـير الانجليزي «Generation of anxiety» وتعني تـوليد القلق لما وقـع في هذا الخطأ. ولو أنـه قرأ النص الخـاص بهذا المصـطلح لاتّضح لـه أن المقصـود هـو ازديـاد شـدّة القلق وانتقـاله من الحـالة التي يسيـطر فيها الشخص عليـه الى الحالـة الثانيـة التي يستحوذ فيهـا القلق عليه تمـاماً مفلتـاً بذلك من سيطرته.

5 ـ «تبرير» بإزاء Rationalisation، ويقترح «ترشيد، تعقيل، عقلية» للناقد الحق في إثارة كلمة Justification بصدد مصطلح التبرير من الناحية اللغوية طبعاً. إلّا أن الأمر أكثر دقة وتعقيداً من الناحية العلمية والفنية. فـ «التبرير» استخدم بإزاء Rationalisation في الحديث عن الأوليات الدفاعية التي يلجأ إليها الأنا في التعامل مع مشتقات اللاوعي ورغباته، غير المقبولة خلقياً واجتماعياً، بغية طمس القصد الحقيقي منها من باب نفي القصد والتنصّل من المسؤولية يلجأ الأنا إلى التبرير لإعطاء نوع من المشروعية أو إضفاء صفة المعقولية على تصرّفات أو مواقف مدفوعة بالأصل بدوافع تتنافى مع هذا التبرير العقلاني، من مثل التستّر بضرورة الحزم والتشدّد في معاملة طفل ما لتبرير عدوانية خفية ضدّه. الواقع أن التبرير هنا هو تبرير عقلاني أو منطقي مقبول ظاهرياً. وهكذا فاقتراح الناقد لتعبير الترشيد أو التعقل لا يتطابق مع المعنى العلمي للمصطلح.

6 ـ «كلمات مخترعة» بإزاء Néologisme يقترح الناقد بصددها واحدة من التعابير «كلمة مولّدة، لفظة جديدة، تعبير جديد». الواقع أن كلمة مخترعة ليست على درجة كافية من الفصاحة والبيان، إلّا أن ما يقترحه الناقد بجانب المعنى العلمي لمصطلح Néologisme الذي يعني حرفياً منطق جديد، ويستخدم هذا المصطلح للدلالة على بعض الكلمات التي تصدر عن مرض الفصام والتي لا تقوم على أي أساس من أسس الاشتقاق اللغوي المعروفة في العربية أو الأجنبية. ولذلك فهي كلمات يتعذّر إيجاد معنى لغوي لها من علم الدلالة اللغوي. إلا أن لها معنى ذاتياً لدى المريض وهي تعبير عن تجربة ذاتية تخرج عن القوالب الفكرية واللغوية المألوفة. الكلمات المخترعة تخضع لما يسمّى بالعمليات النفسية الأولية الخاصة بعلم الحلم، كما هو شأن الأحلام التي تخرج غاية في الاختلاط والغرابة أحياناً. وهاكم نموذجاً من الكلمات المخترعة كتبتها مريضة فصامية: «أمام الأضفاء، حجار وأنتاف، الابان أنتها الى غير لواح. أمام الاضفاء المد دان، أبكاء البداءة والنداءة». فنحن لسنا هنا بصدد لفظة جديدة أو مولدة يمكن أن تدخل في سياق دلالة لغوية عادية. وإذا أردنا فهم دلالة أمثال هذه التراكيب فلا بد من توسل تقنيات قراءة أساليب تعبير اللاوعي ومنتجاته.

هناك إضافة الى هذه الاقتراحات التي يظهر عدم تطابقها مع المعنى العلمي للمصطلح جلياً، ولا يحتاج التعليق عليها أكثر من مجرد التوضيح، أخرى غيرها تثير نقاشاً يتطلب حسمه تبيان الفروقات الدقيقة في المعنى. هذه الفروقات هي التي تبيّن الاختلاف في المنظور وتبرز خصوصية قراءة المؤلفين لأعمال فرويد، وهي قراءة تشكّل بالطبع موقفاً فكرياً وتقنياً عيادياً في آن. ومن هنا تقتضي ضرورة الأمانة في الترجمة الوقوف عندها وتبيان ما يقصدانه بالضبط وهو ما يبرر سبب اعتمادنا لما اعتمدناه من مصطلح بصدد كلّ منها.

7 ـ «استناد» بإزاء Andelisis/Étayage يقول الناقد «ان (الاستناد إلى) معناه في علم النفس الاعتماد. ويتساءل «لماذا لا نترجم Étayage باعتماد، والصفة اعتمادي، بدلاً من الاستناد إلى؟ (ارجع الخفي اعتماد الرضيع على أمه)». الواقع إن المترجم وقف طويلاً أمام هذه المسألة وتفكّر بها كما فعل المؤلّفان ذاتهما. أنّ كلمة اعتماد المقترحة ويقابلها في كل من الفرنسية Dépandance والانجليزية Dependacy تحمل معنى مغايراً تماماً لكلمة استناد على صعيدي النظرية الفرويدية والممارسة العيادية في آن. فاعتماد الرضيع على أمه هو صلة

بيولوجية حيوية حيث إنها من يشبع له حاجاته الأساسية والتي تتهدد حياته بدون إشباعها. أما الاستناد فهو مختلف اذ يرتبط بتفسير نشأة الرابطة العاطفية ما بين الرضيع وأمه. ويذهب فرويد إلى القول بهذا الصدد إن رابطة الحب هذه تنشأ استناداً لاعتماد الطفل على أمه. فالحب يستند على علاقة اعتماد حيوية سابقة عليه. ووجهة النظر هذه لا تمر بدون إشكالات واجتهادات ما بين المحلّلين النفسيين حيث يقول بعضهم إن الحب لا يتوطّد بالاستناد، بل هو مكوّن أولي، شأن الحاجات العضوية.

كلمة الاستناد Étayage ومنها «اختيار الموضوع بالاستناد» أخذت من المؤلفين جهداً وبحثاً لاعتمادها. لنقل فكر فرويد، وإلا فما كان أسهل من القول بالاعتماد Dépendance. واذا راجعنا المصطلح الألماني Anlehnungs نجد أن معناه الدارج استند الى، مال على. وأما الكلمة الانجليزية Andelisis الأقرب إلى الالمانية والأكثر دقة في التعبير عن هذه الفكرة فتعني استند إلى أيضاً To Lean on أو مال أو اتكأ على. ولهذا السبب فضّل المؤلّفان اعتماد كلمة Étayage التي تعني التساند بدورها. فالحب طاقة قائمة بذاتها تتوظف في علاقة مع الأم من خلال اعتماده عليها لاشباع حاجاته البيولوجية.

8 ـ يتساءل الناقد، معترضاً، حول سبب إدخال «أل» التعريف على اسم معرّف هو كلمة أوديب» حيث لا يجد مبرراً لتعريف اسم العلم. وتوضيحاً لذلك يقول المترجم أن المسألة لم تعد تتعلّق هنا باسم العلم أوديب (الملك)، بل أصبح هذا الاسم ومن خلال العقدة الشهيرة المسمّاة به «عقدة أوديب»، يشير إلى إحدى المحطّات الكبرى والفاصلة في بناء الشخصية الانسانية عموماً والهوية الجنسية على الصعيد النفسي خصوصاً. وإدخال التعريف على هذا الاسم هو من باب الدلالة على هذه المرحلة الفاصلة في النمو. فتقول الأوديب، ومصير الأوديب وما قبل الأوديب، وما بعد الأوديب، وفشل الأوديب، ونجاح الأوديب الخ... وكلها تشير إلى العمليات النفسية الحاسمة التي تجري على مستوى العلاقات ما بين الطفل ووالديه ما بين سن الثانية والنصف والسادسة، والتي تتيح له أن يتموضع تجاه هذين الوالدين ويتمثّل القانون، ويبني هويته الذاتية على هذا الأساس، أو هو يفشل في ذلك فشل الأوديب.

9 ـ «نزوات» مفردها «نزوة» بإزاء Pulsions، ويقترح الناقد لذلك كلمة «دوافع».

لا بد من الاشارة بادىء ذي بدء إلى أن المصطلح الفرنسي Pulsion استخدم من قبل البعض ومن ضمنهم المؤلفين لترجمة كلمة Trieb الألمانية والتي تعني هي والفعل Triebenالمقابل لها اندفاع. ويقول المؤلفان (صفحة 532 من المعجم): ان فرويد يميّز بوضوح ما بين مصطلحين موجودين في الألمانية هي Instinkt(غريزة) وTrieb (نزوة). ويحتفظ فرويد بمصطلح الغريزة Instinkt للدلالة على السلوك الحيواني المثبت وراثياً والمنمّط على صعيد التصرّف بشكل محدّد مسبقاً. أما Trieb فتعني الاندفاعية. «ولا ينصب التركيز هنا على غائية محدد، بقدر الصبابة على توجّه عام» ويتم التركيز على «الطابع القاهر للنزوة أكثر من الاشارة الى ثبات الهدف والموضوع». فالنزوة تقتصر على الانسان الذي تتصف غرائزه بالمرونة وعدم التحديد بالنسبة لموضوع إشباعها وكيفيته

ومرونته. وبينما تكون المسافة قصيرة والصلة مباشرة ما بين غرائز الحيوان وسلوكه عموماً غريزة ← سلوك، فإنّ المسافة كبيرة وتمر بالعديد من التحوّلات ما بين النزوة والسلوك عند الانسان. نزوة ← رغبة ← دافع ← سلوك. وتحقيق النزوة قد يرتبط بموضوعها الأصلي (قرين جنسي مثلاً) أو هو يمر بسلسلة من التحولات (ذاتية، شذوذ، تسامي، تسرب إلى نزوات أخرى) وهكذا فالنزوة أكثر تطوراً ومرونة من الغريزة. وهي تشكّل منبع أو مصدر الدفع الأوّلي الذي يلقى مصائر مختلفة تبعاً لتلوين الشخصية والإطار الاجتماعي. أما الدافع فهو أكثر التصاقاً بالسلوك وذو طابع نفسي. وهو يشكل على هذا الصعيد، احد تجلّيات النزوة قبل أن تمرّ إلى الفعل. ومن هنا فالمسألة جد مختلفة ما بين نزوة ودافع والأمران لا يتطابقان كي يمكن استبدال احدهما بالآخر.

أما لماذا وقع خيار د. نزار الزين على كلمة نزوة لترجمة Pulsion (إذ إنه واضع هذا المصطلح) فلأن النزوة وإن كانت تعني المرة الواحدة، وإن كانت ترتبط في الأصل بتناكح الحيوانات، إلا أنها تحمل معنى الاندفاعية الجامحة، التي تقابل الضبط العقلاني. ومن هنا تكثر في اللغة تعابير النزوات، وإنسان نزوي بمعنى الافلات من سيطرة العقل واتّباع الاندفاع الذاتي. ونحن نجد أن كلمة نزوة مناسبة للمقام كترجمة لكلمة Pulsion وTrieb.

وأما كلمة دافع فإن القول الفصل في عدم استخدامها نجده في موقف القائمين على وضع المعيارية الانجليزية لأعمال فرويد الكاملة وهي تشكّل المرجع الرئيس والأكثر ثقة في هذا المضمار. يقول المؤلفان: «تجدر الملاحظة أن الطبعة المعيارية» الانجليزية فضّلت ترجمة Trieb بكلمة غريزة مستبعدة بذلك إمكانات اخرى من مثل الدافع، والحافز. ولقد نوقشت هذه المسألة في المقدمة العامة للمجلد الأول من الطبعة المعيارية» (المعجم صفحة 532).

10 ـ «اجتياف» بإزاء Introjection. يقول الناقد: «والمترجم يعتمد الاشتقاق من جوف، وفي الصفحة 67 يستعمل الاستدخال Interiorisation كمرادف للاجتياف، بينما يترجمها الدكتور حفني باستدماج وكذلك كلمة Incorporation. ومهما يكن من أمر فإن المترجم كان يمكنه توضيح هذا الاشتقاق ومدى الحاجة إليه، لتمييزه عن الاستدخال والاستدماج/أو الادماج. وكان يمكنه أيضاً أن يوضح العلاقة ما بين Introjection وProjection التي يترجمها بإسقاط».

من حق الناقد أن يتساءل عن العلاقة بين هذه المصطلحات الأربعة الاجتياف Introjection الاستدخال Interiorisation والادماج Incorporation والاسقاط Projection كما أن من حقه أن يتساءل عن الفروق بينها وعن مبرر استعمال كل منها، وخصوصاً أن الثلاثة الأولى ترتبط كلها بعملية علاقة ما بين الخارج والداخل. فهل هناك من مبرر لها جميعاً أم أن الأمر مجرد عملية إرباك للقارىء وإثقال عليه بتعدد في المصطلحات يمكن الاستغناء عنه؟ كان بإمكان الزميل الناقد أن يرجع إلى كل من هذه المواد كما هي واردة في المعجم مما يتيح له أن يقف على دلالتها العلمية. أما وانه قد طلب من المترجم القيام بواجب التوضيح فليس بالوسع إلا تلبية هذا الطلب من خلال الرجوع إلى المعجم.

ورد في المعجم في تعريف الاجتياف ما يلي:

«أثبت الاستقصاء التحليلي هذه العملية التي يقوم الشخص فيها بنقل موضوعات أو صفات خاصة بهذه الموضوعات من «الخارج» الى «الداخل» تبعاً لأسلوب هوامي Phantasmatique «يقترب الاجتياف من الإدماج الذي يشكّل نموذجه الجسدي الأول ولكنه لا يستلزم بالضرورة الرجوع إلى الحدود الجسدية (من مثل الاجتياف في الأنا، والاجتياف في المثل العليا للأنا، الخ) . . ».

«والاجتياف على صلة وثيقة بالتماهي» (المعجم، ص 44). أما الادماج Incorporation فلقد ورد في تعريفه في المعجم ما يلي: «هي عملية يقوم فيها الشخص بإدخال موضوع ما إلى داخل جسده ويحتفظ به هناك بأسلوب يتفاوت في درجة هواميته. يشكل الادماج هدفاً نزوياً وأسلوباً من علاقة الموضوع مميزاً للمرحلة الضمنية، فمع أنه ذو صلة مفضلة مع النشاط الفمي وتناول الطعام، إلا أنه يمكنه أن يعاش أيضاً على صلة مع مناطق أخرى مولدة للغلمة ومع وظائف اخرى. وهو يشكّل النموذج الجسدي الأول للاجتياف والتماهي» (المعجم ص 560) وأما مصطلح الاستدخال Intériorisation فلقد ورد في تعريفه في المعجم ما يلي:

أ ـ يستخدم هذا المصطلح غالباً كمرادف للاجتياف».

ب ـ وأما بالمعنى الأكثر تخصيصاً فيدل على العملية التي تتحول فيها العلاقات بين الذات والآخر إلى علاقات داخل الذات (من مثل استدخال صراع، أو منع، الخ». (المعجم، ص 670).

الواقع أنه حتى مع قراءة هذه التعريفات من قبل غير المختصين فإن العلاقة والاختلاف بينها قد يظل قائماً ويحتاج الى توضيح فني. تصف هذه المصطلحات مراحل ثلاث من عملية تمثل العلاقات مع الآخرين. تبدأ هذه العملية كمرحلة أولى بالادماج Incorporation والتي رأينا في تعريفها أنها ذات طابع جسدي أساساً. فالطفل حين يرضع الحليب من ثدي أمه يود لو افترس هذا الثدي وآحتفظ به في جوفه كي يمتلكه ويصبح جزءاً منه. فالادماج هو الحاق جزء بكل أكبر منه، هو نوع من الضم المادي. إلا أن العملية تتم هنا على مستوى نفسي، ولو كان الطفل يعضّ ثدي الأم أحياناً بغية افتراسه. هذه العملية تقترب من الافتراسية البشرية التي يأكل فيها المحارب جزءاً من جسد عدوه لامتلاك قوة من هذا العدو وادماجها في جسده.

وتقوم هذه العملية حين يكون الطفل في شهور حياته الأولى، حيث لا يعرف أي علاقة مع العالم، أو تصنيف له، الا العلاقة الفمية (ما يؤكل، وما لا يؤكل) ومن هنا ولعه بإدخال كل ما تطاله يداه الى فمه ـ هذا هو الإدماج ضم العالم الخارجي الى الذات.

وكما ورد في التعريف تمثّل هذه العملية الأساس الجسدي لعملية الاجتياف. « تمثل في الواقع معان ثلاثة في الإدماج: الحصول على اللذة من خلال ادخال موضوع ما داخل الذات، وتدمير هذا الموضوع، وتمثّل صفات هذا الموضوع من خلال الاحتفاظ بها داخل الذات. هذا الجانب الأخير هو الذي يجعل من الإدماج ركيزة الاجتياف والتماهي » (المعجم ص 560).

انطلاقا من الإدماج وفي خطوة ثانية من النمو النفسي وتطوّر العلاقة مع الآخر يأتي الاجتياف كي يشكّل (ليس افتراساً وضماً الى الذات) بل تمثلاً لصورة الأم الهوامية Imago Maternelle ومن ثم صورة الأب .

فالطفل حين يرضع الحليب يتمثل صورة أمه الطيبة وأسلوب معاملتها الحنون معه ، أو العكس صورة أمه السيئة ومعاملتها النابذة له . هذا التمثّل يقوم على الصعيد النفسي أساساً . وتصبح الأم بالتالي المثل الأعلى الطيّب أو السيء لأنا الطفل. وهو ما يشكّل النموذج الأولي للعلاقة مع الآخرين ومع الحياة .

أما الاستدخال Intériorisation فيشكّل المرحلة الثالثة من عملية تمثّل العلاقات الانسانية الأولى . ولا ينصبّ الاستدخال على ادماج جسدي ، أو على تمثّل صورة الأم أو الأب ، بل ينصبّ على العلاقات والصراعات التي تعاش منذ ذاك على صعيد نفسي داخلي . فالطفل يستدخل الموانع والنواهي والمحرمات والمثل والقيم والعلاقات الايجابية والصراعات مما يساعد على تكوين الأنا الأعلى الموجّه للذات والسلوك .

وهكذا يمكن القول بأن الطفل : يدمج ثدي الأم ، ويجتاف صورتها ، ويستدخل المعايير التي تحكم علاقته بها ونوع هذا العلاقة في آن ، وبشكل تدرج تاريخي حيث عهد كل مرحلة للمرحلة التالية وترتبط بها . وهذا ما يجعل الاجتياف كعملية محورية وسيطة على صلة بالادماج في بدايته وبالاستدخال في نهايته .

افتراسية[1] ـ ادماج ـ اجتياف ـ استدخال . هذا التدرج يعكس ارتقاء التطور النفسي العلائقي الذي تبنى الهوية الذاتية من خلاله .

نرى أن استعمال د. حفني لكلمة « ادماج » لنقل مصطلح Intériorisation لا يتمشى مع طبيعة العملية ، ويجانبه الصواب حيث إنه يقلب المراحل رأساً على عقب ، وبالتالي لا يمكن الأخذ به كما اقترح الناقد .

أما الاسقاط فلن نعرض له بالتفصيل هنا حيث إن المقالة المخصصة له في المعجم (ص 70) تتسم بالشمول والتوسع . إلا أنه لا بد من تبيان علاقته بالاجتياف نزولا عند رغبة الزميل الناقد . هناك جدلية الاجتياف ـ الاسقاط التي تمثل التمايز ما بين الداخل والخارج (معجم ص 73) . والواقع أن هذا الثنائي يمثل عملية التفاعل ما بين الأنا والعالم الخارجي : « . . . يأخذ الشخص الى داخل أناه الموضوعات التي تعرض له باعتبارها مصدر لذة ، أي أنه يجتافها (. .) بين يطرد بعيداً عنه ، كل ما يشكل في صميم داخله سبباً للإزعاج (أوالية الاسقاط » . وتشكل جدلية الاجتياف والاسقاط لب عملية التماهي Identification المكونة للشخصية : يجتاف الطفل الصور الوالدية ، الطيبة أو السيئة أو المزعجة ، ثم يسقط هذه الصور من جديد بعد ان تصطبغ بهواماته وتتلون بذاتيته على هؤلاء الوالدين . ومن خلال هذه العملية المتحركة في اتجاهين تتشكل الهوية الذاتية ليس على غرار الوالدين كما هو موضوعياً ، بل كما يتصورهما ذاتياً من خلال ما يسقطه عليهما من صفات (الطيبة الجبروت ، التهديد الخ . .).

نعتقد أننا لبّينا من خلال هذا العرض رغبة الزميل الناقد . كما نعتقد أننا بذلك قد أوضحنا مبرر اختيارنا لما اخترناه من مصطلحات لا يعود الفضل بوضعها للمترجم وحده ، بل ان القسم الأكبر منها قد وضعه رواد

(1) انظر تعريف هذا المصطلح في المعجم (ص 86) .

سبقوه واخذها هو عنهم . ونخص بالذكر هنا تجربة تعريب علم النفس في قسم علم النفس في الجامعة اللبنانية التي قادها الدكتور نزار الزين وكان للمترجم شرف الاسهام النشط فيها . كما نخص بالذكر العمل الرائد الذي قامت به جماعة علم النفس التكاملي في مصر بقيادة الاستاذ الكبير يوسف مراد .

ثالثاً : في الكتابة العلمية :

اننا نوافق الزميل الناقد على أن الشرط الرئيسي للقيام بالترجمة هو اتقان اللغتين الداخلتين في العملية إتقاناً كافياً يتيح للمترجم الفهم الدقيق للنص الأصلي وسكبه في أسلوب مبين في اللغة التي يترجم اليها . وقد تكون الترجمة مهنة في الكثير من الأحوال (الترجمة الفورية ، وترجمة آثار الأدب والفكر بعامة) . الا ان الترجمة لا تقوم على الاحتراف وحده (هل يكفي الاحتراف كما يذهب اليه الزميل الناقد لترجمة نصوص شعرية مثلاً أم أن المترجم لا بد أن يكون شاعراً بدوره حتى يستطيع الترجمة بلغة الشعر ؟) هذا السؤال موجه الى الزميل لما تعرف عنه من هواية قرض الشعر .

كما أننا لا نستطيع موافقته على القول بأنه « لا يكفي أن ينتمي احدنا الى العلماء العامين (Savants Générau) أو الى العلماء المختصين في علم ما ، حتى يكتسب آليا حق الترجمة ، وممارسة مهنة المترجم العلمي » . ولا نظن أنه من المناسب اطلاق هذا القول المتعالي : « الا ان الترجمة الاختبارية (شيمة المسرح الاختباري) تفتح الأبواب والسبل أمام العلماء العرب كي يجودوا الكتابة العلمية في كل الحقول » .

اذا كان شرط امتلاك اللغتين ضرورياً بل واجبا للإقدام على الترجمة فهو غير كاف . لا بد أيضا من امتلاك الاختصاص العلمي الذي يتيح وحده فهم المقصود لكل مصطلح ، وبالدلالة الغنية للنص. لا بد ان تكون الترجمة نقلاً اميناً للأفكار وليس مجرد نقل لنص مأخوذ من زاويته اللغوية . نعتقد أن ما قدمناه من تعليقات وايضاحات حول اقتراحات الناقد ، وما بيّناه من حالات حيد عن المعنى الغني للعديد من المصطلحات التي تناولتها محاولته ، يبين بجلاء مدى الخطر الذي يمكن أن يلحق بنصوص علمية ذات طابع فني كتلك الواردة في المعجم فيما لو أوكل أمر ترجمته لمن احترفوا الترجمة بعامة ، أو للمترجمين العامين (على غرار العلماء العامين) .

ان ما قدمناه من تعليقات وتصويب على اقتراحات الزميل الناقد « تكفي بجعلنا نصمت ونتفكر في مصاعب الكتابة العلمية » (وهو قول ينطق بلسان حالنا) .

اننا نعتقد أن مسألة الخلاف حول عائدية اللغويين والفنيين قد تجاوزه الزمن . فلا احتراف الترجمة من منطلق التمكن اللغوي كاف وموثوق ، ولا الاقدام عليها من الموقع الفني وحده يوصل الى الغاية . لا بد من العمل (كما يقول الزميل الناقد) في فريق فني لغوي . وهنا يمكن أن تكون الصدارة للتمكن الفني بمقدار ازدياد تخصص النص مع دعم لغوي ، أو هي تكون للتمكن اللغوي ، كلما اقترب النص من الثقافة العامة ، مع دعم فني عند اللزوم ، وأن الحالة المثالية تكمن في امتلاك ناحية الأمرين معا مما هو بعيد المنال في معظم الأحوال .

وفي الختـام لا يسع المتـرجم الا أن يكرر شكـره للزميل د. خليـل أحمـد خليـل عـلى جهـده واجتهـاده اللذين أتاحا الفرصة لقيام هذا النقاش العلمي الهادف الى الارتقاء بالترجمة والكتـابة العلميـة بالعـربية . وللمتـرجم كبير الأمل أن يحذو آخرين حذو الزميل الناقد فيعتبرون هذا النقاش ويصورونه من خلال اسهـاماتهم النقـدية المنهجيـة لهذا العمل ولسواه ، مما يساعد حتما على تطوير هذه الأعمال ذاتها .